

## سياسة الجنرال ليوتي-Lyautey في منطقة الجنوب الوهراني (1903-1908)

د. محمد برشان / جامعة بشار

\*\*\*

تمهيد\*

إنّ فشل الحملات العسكرية التي استهدفت إخضاع الجنوب الوهراني منذ سنة 1847 وما نجم عنها من صراع بين الحكومة الفرنسية وقيادة الجيش، جعل السلطة الاستعمارية وعلى رأسها الحاكم العام جونار للجزائر تُعين ليوتي "Jonart" على رأس القيادة العسكرية لإقليم العين الصفراء نتيجة تجربته السابقة في الهند الصينية، ومعارضته للأسلوب الفرنسي في إدارة المستعمرات والمبني على الإدارة المباشرة. تفضيل ليوتي 'Lyautey' الإدارة غير المباشرة هو الذي جعله يضع تصورا خاصا به لاحتلال منطقة الجنوب الوهراني مرتكزا في ذلك على فكرة "السلم الاجتماعي" من خلال التقرب المباشر من السكان. ومحاولة استمالتهم وإدماجهم في المنظومة الاجتماعية الفرنسية. وهو المنهج الذي سلكه الجنرال دوغول -De Gaulle (1958 - 1962) في معالجته للقضية الجزائرية عندما أكد على ضرورة استبدال السيادة في الجزائر بمبدأ الشراكة بين الدولتين.

وقد وقفنا في هذا المقال على الظروف العامة التي سبقت تعيين ليوتي 'Lyautey' قائدا عسكريا لتوسيع نفوذ الاحتلال الفرنسي في الجنوب الوهراني. وكذا محاولة إبراز الأساليب التي تبناها في إنجاح مشروعه الإدماجي، ومن ثمّ تدويب روح المقاومة في المنطقة.

Abstract: The place given to the General Lyautey and the fame obtained through activation and the speed up of the process of colonial penetration in the South of Oran returns not only to his work with dedication to serve the purposes of his colonial State, but basically to the way and the policy approach that he followed under military rule in the South of Algeria. Once joining the military territory in the region of Ain sefra in 1903, he adopted the policy of appeasement and indirect management after he had been convinced that the military solution decisiveness alone will not succeed, which had avoided to his country much of human and material losses. This does not mean at all that the force option was not on the table, as evidenced by the severe repression exerted against Sheikh Bouamama resistance.

Key words: General Lyautey- South of Oran - the military territory - the policy of appeasement - Idéologie de la tribu – Zaouias.

\*- الوضع الأمني بمنطقة الجنوب الوهراني قبيل تعيين ليوتي- Lyaute (1)

إن احتلال منطقة الجنوب الوهراني كان طويلا وصعبا في نفس الوقت، ويُرد ذلك إلى أسباب دينية وجغرافية وحتى سياسية، وهي الأسباب التي كلفت الحكومة الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح والأموال، وتسببت في حدوث أزمة سياسية خانقة، وضجة إعلامية صاخبة بفرنسا، حيث طالب البرلمان والصحافة بضرورة انسحاب القوات الفرنسية التي تخوضها في احتلال الجنوب الوهراني خاصة والصحراء عموما. فإلى غاية فترة نهاية السبعينات من القرن التاسع عشر لم تفلح السلطة الاستعمارية في إخضاع منطقة الجنوب الوهراني، وفرض سيطرتها عليها وعلى القصور المحاذية لها، حيث استعصى على القوات الفرنسية اقتحامها بشكل كامل ونهائي. (2) وهو ما يعني الفشل الذريع وتبذير الأموال الطائلة بالنسبة للحكومة الفرنسية.

ومن ثم فقد كشفت هذه العمليات عن مدى تأثر الاستعمار بالعجز المالي والتردد في الأهداف المقصودة من جهة، والصراع بين الجيش والحكومة من جهة أخرى. نستشف ذلك من تصريح دوكاستري وهو أحد المنظرين الرئيسيين للاستعمار الفرنسي عندما أشار إلى أن: "... الجنوب الجزائري قد ضيّع لفرنسا نصف قرن من الزمن، والأموال الضخمة التي قدرت بالملايين، كان من الأفيدي استثمارها في توسيع نفوذنا في مناطق حيوية كالمغرب الأقصى مثلا..." (3)

<sup>1</sup> - هو لويس هيربرت جونسالف ليوتي- Lyautey Louis-Hubert. Gonsalve ولد في 17 سبتمبر 1854 بمدينة نانسي " Nancy" دخل المدرسة العسكرية المتخصصة سنة 1873 وتخرج منها برتبة ملازم سنة 1877، ليرتقي بعدها إلى رتبة نقيب في 22 سبتمبر 1882. وفي 22 مارس 1893 عين مسؤولا عن سرية، ثم ارتقى بعدها إلى رتبة جنرال في جويلية 1907، ثم مارينشال في 19 فيفري 1921. جند في طونكين - Tonkin ومدغشقر، حيث اكتسب شهرة واسعة في الأوساط العسكرية. توفي في 21 جويلية 1934. بناء على وصيته دفن ليوتي في المغرب الأقصى الذي عين به كأول مقيم عام (1912-1925)، قبل أن يتم نقل جثمانه إلى باريس سنة 1961 بطلب من الجنرال شارل دوغول.

عينه الحاكم العام للجزائر جوناك - Jonnart على رأس القيادة العسكرية بإقليم العين الصفراء سنة 1903، ومنحه صلاحيات واسعة، حتى أنّ الجنرال ليوتي- Lyautey كان يتصل مباشرة بالحكم العام ووزير الحرب، متخطيا بذلك السلم العسكري الذي كان يمر عبر قطاع وهران، فالفيلق التاسع عشر. ينظر:

Peyronnet, R, Livre D'Or Des Officiers Des Affaires Indigènes, T2, Notice et Biographies, Imprimerie Algérienne, Alger, 1930, PP. 488.495.

<sup>2</sup> - De La Matinier. (H .M.P), Lacroix, (N), Documents Pour Servir a L'Etude Du Nord Oust Africain, T2, Gouvernement General De L Algérie, Alger, 1897. T II ,P. 416.

<sup>3</sup> - ايف لكوست، بريان أندري، أندري نوشي، الجزائر بين الماضي والحاضر ترجمة اسطنبولي راج وآخرون الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الرغاية، الجزائر، 1984، ص، 387.

الموقف نفسه تبناه رئيس مكتب الشؤون الأهلية الضابط رين- Rinn في 21 جانفي 1881 بالجزائر عندما صرّح قائلاً بأنّ: "...الحمالات المختلفة منذ سنة 1864 على منطقة القصور بالجنوب الوهراني، ثم بعد ذلك في سنة 1870 ترهن وتكشف إذ ما تجاوزنا من المبالغ الهائلة المنفقة عليها، بأنّ أهدافنا المسطرة لم تتحقق."<sup>(1)</sup> في بداية القرن العشرين انتقل الصراع إلى داخل المؤسسة التشريعية لما احتدم النقاش بين نواب البرلمان حول إصدار قانون يتضمن مشروع تنظيم مناطق الجنوب، ووضع ميزانية خاصة لها. هذا القانون اقترحه الحكومة الفرنسية في 21 مارس 1902، وبعد مناقشات حادة بباريس والجزائر تمت المصادقة عليه يوم 24 ديسمبر 1902<sup>(2)</sup>. وتبعاً لذلك قُسم الجنوب الجزائري إلى أربعة أقاليم، على رأس كل واحد منها قائد أعلى برتبة رائد، وكل إقليم مُقسّم إلى دوائر وملحقات وكل ملحقة مجزئة إلى مراكز عسكرية يسيرها ضابط. ومن بين هذه الأقاليم كان الإقليم العسكري للعين الصفراء، الذي ضمّ الأجزاء الجغرافية التي شكلت منطقة الجنوب الوهراني وهي: العين الصفراء، المشرية، البيض، بشار والساورة "بني عباس" وملحقة توات "تميمون".

#### \*- ليوتي- Lyautey ومسألة احتلال الجنوب الوهراني

بمنظور الجنرال ليوتي 'Lyautey' فإنّ الوضعية الأمنية بالجنوب الوهراني بلغت درجة جدّ خطيرة بفعل ما سمّاه بالفوضى المغربية، عندما صرّح بأنّ: «...المشاغبين توغلوا إلينا بسهولة لأنّ معاهدة سنة 1845 المتفق عليها بين سلطة المخزن المغربي، وفرنسا تُشير إلى عدم وجود حدود إقليمية مُقامة بين البلدين ما دامت الأراضي غير مزروعة»<sup>(3)</sup>. تجدر الإشارة إلى أنّ معاهدة لآلة مغنية الحدودية في 18 مارس 1845 المتعلقة برسم الحدود بين، تناولت ثلاثة مناطق أساسية منها ما جاء في البند الثامن من المعاهدة حيث أشار إلى: "...أنّه لا يُمكن ترسيم الحدود بين الدولتين في الرقعة الجغرافية الواقعة جنوب منطقة القصور، أين يتواجد بحرا من الرمال، ومن ثمّ

<sup>1</sup> - المرجع نفسه.

<sup>2</sup> - Lehuraux (Léon), «Le Statut Territorial Des Territoires Du Sud De l'Algérie », *Revue Africaine*, N° 81, 1937, P.171.

<sup>3</sup> - Lyautey, Pierre. *Vers le Maroc, Lettre Du Sud Oranais (1903-1906)*, Librairie Armand Colin, Paris, 1937. P 06.

يتعذر وضع علامات لترسيم الحدود".<sup>(1)</sup> وهو الوضع الذي ترك قبائل الجنوب الوهراني تعيش في الظل.

وتظهر غاية الاحتلال والتعجيل في عملية التوسع العسكري بالجنوب الوهراني من خلال ما صرّح به الجنرال ليوتي- "Lyauty" إذ يقول: "إنّ احتلال منطقة الجنوب الوهراني هو قبل كل شيء أمر يتعلق بالنظام العام لحماية المنطقة التلية، والهضاب العليا، وهي المناطق التي نستقر فيها، وليس لجعل المنطقة ورقة تجارية مفتوحة أمام المعمرين"<sup>(2)</sup>. بمعنى أنّ احتلال الجنوب الوهراني أضى ضرورة أمنية قبل أن يكون مصالح اقتصادية على الأقل في المرحلة الأولى من إخضاعه. عُرف على الجنرال ليوتي- "Lyauty" بعد نظره واستشرافه للمستقبل من جهة، وميوله إلى العمل والمغامرة، وكرهه الشديد للأسلوب الفرنسي في إدارة المستعمرات والمبني أساسا على الإدارة المباشرة وإقصاء للعنصر الأهلي.

لذلك فإنّ رؤيته لاحتلال الجنوب الوهراني ما هي في الواقع إلا إجراء استراتيجيا لإبعاد الكولون عن فكرة الاستثمار في الصحراء خاصّة بعدما تأكّدت الحكومة الفرنسية من خلال الحملات الاستكشافية والأبحاث الجيولوجية بأنّ الخريطة الطبوغرافية للصحراء تكتنز العديد من الثروات الباطنية.

كما أنّ إخضاع الجنوب الوهراني بمنظور ليوتي- "Lyauty" يعد إجراء أمنيا وعملا استراتيجيا يؤمن موقع الاستعمار الفرنسي في الجزائر ومن تحقيق الاحتلال الكامل والشامل من جهة، والتحضير لاحتلال وإخضاع المغرب الأقصى من الجنوب بحجة ملاحقة الثوار الذين وجدوا في الحدود المغربية معقلا آمنا لمقاومتهم، والمقصود هنا الشيخ بوعمامة. وبالتالي استكمال احتلال المغرب العربي. خاصة وأنّ فرنسا كانت منذ بداية القرن العشرين وفي إطار التنافس الدولي على المغرب الأقصى بصدد إبرام اتفاقيات سرية مع الدول الأوروبية عُرفت بـ 'اتفاقيات اللصوص' للانفراد باحتلاله. ومنذ سنة 1905 أكثر ليوتي - Lyauty من التردد في الداخل المغربي عبر الحدود الجنوبية للمملكة. لذلك لا نستغرب في أن يكون ليوتي- Lyauty أول مُقيم عام لفرنسا في المغرب الأقصى خلال الفترة الممتدة بين (1912-1925)

<sup>1</sup> - Céard. (L), Gens et Choses de Colomb Bechar Archives Institut Pasteur d'Algérie, Tome 11, N°01, Alger, mars 1933.P. 91.

<sup>2</sup> - Lyauty, Op. Cit. P.46.

أشارت بعض الوثائق الفرنسية إلى أنّ الأهداف الحقيقية المتوخاة من وراء بناء أول عيادة طبية بالقنادسة، هو محاولة سلطات الاحتلال فرض نوع من الوصاية والتأثير على السكان بالمنطقة، ومعرفة ما كان يدور بداخل الزاوية الزبانية، ومن ثمة الوصول إلى المعلومات التي كانت تأتيها من الغرب<sup>(1)</sup>، أي من المغرب الأقصى باعتبار أنّ نفوذ الزاوية كان يمتد إلى جهات عديدة من المغرب. كما أنّ فرنسا كانت تجمع المعلومات الكافية لتسهيل عملية ضم المغرب إلى نفوذها الاستعماري خاصة بعدما تلقت التزكية السياسية في مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906.

#### \*-تعيين ليوتي "Lyautey" على رأس القيادة العسكرية في الجنوب الوهراني

اندرج تعيين ليوتي "Lyautey" من قبل الحاكم العام جونار "Jonart" على رأس القيادة الفرنسية بالإقليم العسكري للعين الصفراء سنة 1903 من أجل ضمان وتأكيد السيطرة الفرنسية، مانحا إياه الصلاحيات الكاملة في اتخاذ القرارات المناسبة، والحرية التامة في التصرف من أجل التسريع في عملية التوسع العسكري، ووضع حد للاضطرابات بمنطقة الجنوب الوهراني<sup>(2)</sup>. لم يكن اختيار ليوتي "Lyautey" من قبل الحاكم العام صدفة بل نتيجة تجربته العسكرية الطويلة، وللطريقة والسياسة التي كان يؤمن بها، والمبنية على احترام "الأهالي" والحكم بواسطتهم كأنجع وسائل التغلغل الاستعماري مقتنعا في الوقت نفسه بأنّ الجسم العسكري وحده لن يكتب له النجاح. أي أنّ اعتماد وتفضيله لأسلوب الإدارة غير المباشرة هو الذي جعله يضع تصورا خاصا به لبسط السيطرة على المنطقة في إطار سياسة التهدئة - Pacification.

وفي الواقع نجد إنّ ليوتي "Lyautey" اتبع سياسة ذات وجهين: سياسة القبضة القوية التي طالب بها، ونال بها من الحكومة الفرنسية الاعتراف به سيّدا مطلق السيادة على الإقليم العسكري للعين الصفراء يخضع لأوامره جميع المصالح العسكرية بما في ذلك جهاز الاستخبارات، وكافة المصالح السياسية. وتمثلت السياسة الأخرى بالنسبة إليه في القيام بمبادرات تهدئة، وعمليات إغراء ومهادنة في

<sup>1</sup> -A.N.O.M.Série 16H65, Rapport du Général Lyautey au Gouverneur Général, Date du 1 mars 1906 à Ain Sefra.

<sup>2</sup> - مياشي إبراهيم، "التوسع الاستعماري في الصحراء الجزائرية"، مجلة سلسلة ملتقيات، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية والثورة، ص.ص.225-244.

اتجاه ذوي النفوذ من رؤساء القبائل والعشائر حتى يحرم المقاومة التي قادها الشيخ بوعمامة في المنطقة من كلّ دعم عسكري.<sup>(1)</sup>

لقد كان تعيين ليوتي- Lyautey على القيادة العسكرية بالمنطقة تحولا جذريا في السياسة العسكرية التي وظفها القادة العسكريون الذين سبقوه، حيث سارع ليوتي Lyautey إلى التراجع عن العمل العسكري، ورأى أنّ القضاء على المقاومة وتهدة السكان يتطلب حلا سياسيا، ومراقبة إدارية أكثر من اعتماد العمل العسكري الإستتصالي.

بعد تعيينه على رأس القيادة العسكرية لإقليم العين الصفراء سنة 1903 عمل ليوتي Lyautey من خلال إستراتيجيته الاجتماعية التي تعتمد سياسة التهدة الشاملة مع السكان، أو ما عُرف بالتدخل السلمي على تجسيد سياسة الإدماج التي شكلت قوّة فعالة في مشروعه، والذي ركز على مبدأ تمكين القبائل من الرعاية الاجتماعية كأول خطوة لتحقيقه على أرض الواقع. حيث كان يرى بأنّ القوة ليست الوحيدة التي تنهي الحركات المناوئة ولكن يجب أن يصاحب الاحتلال بالقوة احتلال معنوي، ولذلك حاول استمالة السكان إلى الجانب الفرنسي فوزع المئونة، وحاول تحبيب الفرنسيين للسكان بتوفير الأمن والرخاء المادي.<sup>(2)</sup>

هذه الخطوات غير المألوفة في السياسة الفرنسية التي قام بها ليوتي- Lyautey في المنطقة، جعلت الحاكم العام جونار "Jonnart" يكتب عنه تقريرا مفصلا إلى رئيس حكومة فرنسا بباريس بعد زيارته إلى بني ونيف في أكتوبر 1904، بعدما أثنى فيه على ليوتي- Lyautey، أبرز نجاعة السياسة التي يسلكها في تحقيق الأمن والسيطرة على الأوضاع المضطربة، التي عرفت منطقة الجنوب الوهراني، وحثّ فيه على ضرورة التركيز على الجانب الاجتماعي منها في قوله: "علينا ... إعطاء الدليل لهؤلاء السكان المسلمين المنضوين مؤخرا تحت رعايتنا، أنّنا نريد بكل الوسائل خدمة مصالحهم

<sup>1</sup> - بوعلام بساج، أعلام المقاومة الجزائرية ضدّ الاحتلال الفرنسي بالسيف والقلم 1830 - 1954، وزارة المجاهدين، 2007، ص. 195.

<sup>2</sup> - عبد القادر خليفي، المقاومة الشعبية للشيخ بوعمامة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010، ص. 144.

المادية"<sup>(1)</sup>. كما لقي ليوتي Lyautey كلّ الدعم والتأييد في إستراتيجيته هذه من مختلف أعضاء الحزب الاستعماري الفرنسي.<sup>(2)</sup> ينضاف إلى ذلك أنّ ليوتي-Lyautey وإن كان يفضل سياسته السلمية، فإنّ هذا لا يعني مطلقاً أنّ خيار القوة لم يكن مطروحاً لديه. إذ كان في حالات عدّة يوظف الترهيب بعد فشل الترغيب. فهو يجمع بين ثنائية الترغيب والترهيب. كان يتجنب إلحاق أيّ ضرر يتعرض أفراد القبائل في المنطقة جراء عملية الاحتلال أو الاستيلاء على الأراضي الزراعية ومناطق الرعي، لأنّ ذلك بمنظوره كان مُشجّعاً على استمرار المقاومة، ويشهد على ذلك أنّه هدد قبائل ذوي المنيح المتمركزة بوادي قير في ماي 1905 وطلبت منهم إعلان خضوعهم بشكل رسمي، وخيّرتهم بين الخضوع للسلطة الاستعمارية أو مغادرة منطقة قير طبقاً لبروتوكول 1901.<sup>(3)</sup>

#### \*-سياسة ليوتي-"Lyautey" في المجال الاجتماعي.

فبمجرد التحاقه بالجنوب الوهراني اعتمد ليوتي-Lyautey في مشروعه الهادف إلى تسريع عملية التوسع العسكري ووضع حد للقتال والاضطرابات التي عمت أرجاء المنطقة، على عدة أساليب وإجراءات اجتماعية واقتصادية، كان الهدف الأساسي منها تحقيق سياسة التهدئة-Pacification التي تبناها في إطار مشروعه المعروف بـ "السلم الاجتماعي" من خلال التقرب المباشر من السكان ومحاولة استمالتهم وإدماجهم في المنظومة الاجتماعية الفرنسية، بعدما يدركون الفارق الحضاري بين واقعهم الاجتماعي التقليدي، والواقع الجديد المستمد من الحضارة الغربية. بمعنى أنّ أراد غرس عقدة النقص في نفوس السكان من جهة، وخلق الشعور لديهم أيضاً بالتفوق الحضاري الأوربي الفرنسي، وبالتالي فرض الهيمنة والسيطرة على السكان. ومن ثمّ انقطع ليوتي-Lyautey لبناء مجتمع عصري بنقل النمط الحضاري الفرنسي، عملاً بتوصية وزير الاستعمار في مطلع القرن العشرين جول فيري، والتزاماً بمنهج

<sup>1</sup> - أحمد مزيان، المجتمع والسلطة المخزنية في الجنوب الشرقي المغربي خلال القرن التاسع عشر (1845-1912)، الجزء الأول، الطبعة الأولى، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، الرباط، 2007-1428، ص ص. 194-195.

<sup>2</sup> - روس أ.دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1881-1912 ترجمة أحمد بوحسن مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2006، ص.263.

<sup>3</sup> - Lyautey. Op, Cit. P P.293.294.

يقوم على الفهم الجيد للواقع من أجل عمل جيد يحترم العلاقات الثقافية، أو بالأحرى، اختلاف الثقافات والحضارات.<sup>(1)</sup>

كان يدرك بأنّ الطب أداة ناجعة وفعالة للاحتواء وتحقيق الإدماج الاجتماعي وتجلى ذلك من خلال المراسلة التي بعثها إلى أحد القادة العسكريين يبرز فيها أهمية الطب في عمليات التهدئة الاجتماعية حيث يقول: "أفكاري حول أهمية الطبيب في المستعمرات ووظيفته، ومساهمته في عمليات التهدئة معروفة... فكثير من سوء الفهم يزول بمجرد ما تحصل الثقة ويتم التفاهم... ولا أحد أفضل من الطبيب لبناء هذه الثقة، إنّها تتحقق بين عشية وضحاها بمجرد أن يقتنع أيّ إنسان عادي بزيارة الطبيب الفرنسي كلما ألمّ به المرض، فإذا غادر الطبيب وخفت آلامه يتم التغلب على الحاجز النفسي مما يسهل الإقدام على القيام بالخطوات الأولى لربط علاقات المودة."<sup>(2)</sup>

تظهر أوّل محاولة لتجسيد سياسة إدماج السكان عبر المراكز الصحية، عندما أقدمت السلطات الاستعمارية على إقامة عيادة طبية بمحاذاة قصر القنادسة المركز الروحي للزاوية الزيانية، الأمر الذي أثار حفيظة شيوخها مبدئين رفضهم للمشروع من أساسه، لأنّه بحسبهم كان يحمل أبعاد سياسية، ويرمي إلى محاولة إضعاف النفوذ الاجتماعي والاقتصادي للزاوية التي شكّلت منذ تأسيسها على يد شيخها سيدي محمد بن بوزيان، وفي ظلّ غياب الدولة القائمة مؤسسة حضارية شاملة ترعى شؤون المجتمع من كل جوانبه وتفرض وصايتها الكاملة على أفرادها.<sup>(3)</sup> خصوصا وأنّ ظاهرة التبرك بأولياء الله الصالحين وزيارة شيوخ الزاوية ظلّت تُشكّل الاعتقاد الراسخ لدى عامة الناس الوسيلة المثلى للحصول على الشفاء من كل الأسقام والعافية من المصائب والبلاء، وفي المقابل يدفع الزائر زيارة عينية أي جزء من ماله نظير تلك الوسيلة وهو ما زاد من ثروة ومداخيل الزاوية.

وأشارت بعض الوثائق الفرنسية إلى الأهداف الحقيقية المتوخاة من وراء بناء هذه العيادة الطبية بالقنادسة، فبعدما تلقت الإدارة الفرنسية بالمنطقة تقريرا مفصلا

<sup>1</sup> - لحسن آيت الفقيه، "المرشال ليوتي بين الانتماء العرقي والانتماء الثقافي"، مجلة الحوار المتمدن، العدد 3849، 13/09/2012.  
<sup>2</sup> - مبارك زكي، الطب الاستعماري من عمل إنساني إلى أداة للتسرب الاستعماري السلمي، ملتقى دولي "الاستعمار بين الحقيقة التاريخية والجدل السياسي"، 02، 03 جويلية 2006، الجزائر، منشورات وزارة المجاهدين، 2007، ص.111.

<sup>3</sup> - A.N.O.M.Série 16H65. Rapport du Général Lyautey au Gouverneur Général. Date du 1 mars 1906 à Ain Sefra.

مؤرخا في 18 يناير 1906 من العقيد بيرو - Piéron قائد الفيلق العسكري الفرنسي المتمركز بشار كشف فيه عن ظهور بعض الأمراض وتفشيها بين مريدي الزاوية الزبانية بالقنادسة بهدف القضاء على تلك الأمراض اقترح إقامة مشروع العيادة<sup>(1)</sup>. وبحسب نفس الوثيقة فإنّ الهدف الأولي من المشروع هو محاولة سلطات الاحتلال فرض نوع من الوصاية والتأثير على السكان بالمنطقة، وفي رصدها للعوائق التي تعترض سبيل تحقيق مشروع الإدماج أكدت الإدارة العسكرية الاستعمارية على أنّ استكمال مهمتها في التقرب من المجتمع الصحراوي تستوجب تكثيف الجهود من أجل وضع حد للأمراض والكوارث الاجتماعية التي يتخبط فيها سكان المنطقة بسبب غياب الرعاية الصحية الكافية من جهة، وانتشار بعض الأفكار الجامدة التي تؤمن بالجبيرة والقدرية "fatalisme"<sup>(2)</sup> من جهة أخرى، والمقصود هنا طبعا ظاهرة الاستشفاء والتبرك بأولياء الله الصالحين.

وعلى صعيد آخر وفي إطار تذويب المقاومة في منطقة الجنوب الوهراني لجأ ليوتي- Lyauty إنشاء فرق الكتائب الصحراوية- Saharienne Compagnie عُرفت أيضا بمصطلح المخزن. تألفت هذه الفرق من مُجَنّدي القبائل المتعاونة مع السلطات الاستعمارية، وهي مقسمة إلى وحدتين: وحدة المشاة، ووحدة الخيالة والفرسان، استغلها ليوتي- Lyauty، والقادة العسكريين الذين عُينوا من بعده في إدارة الإقليم العسكري للعين الصفراء في ملاحقة رجال المقاومة أو القبائل المناوئة لفرنسا، وكانت أول شركة صحراوية قد أنشئت بإقليم توات سنة 1902.<sup>(3)</sup> وفي سنة 1905 أنشأت خمس كتائب صحراوية: الأولى حُدد نشاطها في حراسة المناطق الممتدة بين وادي زوزفانة ووادي قير، وتمثل مهام الكتيبة الثانية في العمل على احتلال وحماية منطقة الساورة وملحقة بني عباس، وأما الثالثة فقد امتد عملها إلى توفير الحماية لمنطقة توات قورارة، وتمحور نشاط الكتيبتين الرابعة، والخامسة في منطقة تيدكلت، والمناطق الصحراوية الشرقية<sup>(4)</sup>.

<sup>1</sup> -Ibid

<sup>2</sup> - Pigeot, Col, Monographie Politique du Territoire, D'Ain Sefra, Exempleire, N° 20/25 Colomb Bechar, 1953.P.126.

<sup>3</sup> - Arnaud (E), Cortie (M), Nos Confins Sahariens, Etude » D'organisation Militaire, Paris, 1908, PP. 77. 84.

<sup>4</sup> - Humbert Charles (J), La Découverte du Sahara en 1900, L'Harmattan, Paris, 1996, P.275.

على أنّ قوات المخزن بحكم معرفة عناصرها بخبايا الصحراء وجغرافيتها الصعبة فقد وُظفت في ملاحقة رجال المقاومة، التي كانت تتخذ من منطقة الجنوب الوهراني معقلا لها وملاذا آمنا لتجميع قواتها وتنظيم صفوفها. مع العلم بأنّ مجموع عناصر المخزن بإقليم العين الصفراء العسكري بلغ استنادا إلى نفس البرقية 685 مخازنيا موزعين على كل مراكز الإقليم، وهذا يعني بأنّ منطقة بشار حازت على أكثر من 71 % من مجموع عناصر المخزن في الإقليم العسكري للعين الصفراء.<sup>(1)</sup>

لا تختلف المهمة التي أُنيطت بها الشركات الصحراوية عن مهمة مكاتب الشؤون العربية « Bureaux des Affaires Arabes » التمييزية في تفتيت الوحدة القبلية والسيطرة على الإدارة المحلية، حيث كان ضباط الشؤون الأهلية في مراكز زوزفانة يواصلون في نفس الوقت تشجيع بعض فروع قبائل ذوي المنيع التي تمسكت بخيار المقاومة عبر الوسطاء، فكان هؤلاء الضباط يعرضون على شيوخ القبائل تؤولي مناصب "القائد" الرسمي، ويقدمون لهم في وقت لاحق المساعدات المالية، والغذائية مقابل تقديم المساعدة للسلطات الاستعمارية من أجل إقناع الفروع الراضية للخضوع.<sup>(2)</sup>

في إطار سياسته ويهدف اختراق الطابع القبلي للمنطقة لجأ ليوتي- Lyauty إلى تشجيع النزعات القبلية والطائفية بين الطرق الصوفية، وإثارة العرقية بين مكونات المجتمع المحلي (عرب، أمازيغ، زنوج) من أجل بلوغ هدف أساسي وهو تفكيك المجتمع وإضعافه. تجسيدا لذلك عمل على ربط انتماء القبائل الرحل بسكان القصور والواحات، وبهذا التدبير يُمكن مراقبة قبائل المنطقة وإذكاء التناقضات بين القبائل الرحل ذات الأصول العربية وسكان القصور ذوي الأصول الأمازيغية، وعادة ما تبرز القصور والواحات الصحراوية في الكتابات الاجتماعية الكولونيالية كقلع معزولة وحصون تحاصرها القبائل البدوية من كلّ جانب، سعى الاستعمار بكل الوسائل المتاحة إلى تعزيز هذه القطيعة المفترضة بين البدو وسكان القصور، أو بين الريف والمدينة.<sup>(3)</sup>

<sup>1</sup> - A.N.O.M.Série 23H84, Rapport N°842, du 27 Février 1928, « Réorganisation Des Compagnie Saharienne ».

<sup>2</sup> - روس، ا، دان، المرجع السابق، ص.224.

<sup>3</sup> - محمد برشان، "الاستعمار والمجتمع القبلي في الصحراء الجزائرية"، المواقف مجلة الدراسات والبحوث في المجتمع والتاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة مصطفى اسطنبولي-معسكر، العدد 11، ديسمبر 2016، ص. 166.

كما سعى إلى توظيف بعض العائلات والشخصيات التي حظيت بمكانة بين قبائلها، والتي توفرت فيها مجموعة من صفات القيادة والطموح، والمهارة والذكاء. لتشكل واسطة بينها وبين تلك القبائل التي رفضت الخضوع للاحتلال، وأوكلت لها مهمة جباية الضرائب، مقابل حصولهم على جملة من الامتيازات، والألقاب التي تليق بمقامهم كقادة للقبائل، أو شيوخا للقصور، ومن ثمّ حوّلهم إلى أعوان للإدارة الاستعمارية<sup>(1)</sup>.

وتم بذلك إحداث مناصب سيادية جديدة كمنصب القايد والأغا والباشاغا، فعينت على رأس كل قبيلة أو قصر قايد، وأحيانا لا يكون من الوجهاء أي من كبار الجماعة والذي يساعده مجلس (جماعة) مُكوّن من الأعيان، والشيء الخطير من وراء هذا الإجراء أنّه خلق مركزية جديدة مُنافسة وبديلة لمركزية الزاوية، التي كانت تُمثل إسمنت وقاعدة لأبي حراك يقوم به سكان المنطقة وظهر ذلك بشكل جليّ في مقاومة الشيخ بوعمامة. حيث نجح هذا الأخير في لَمّ شمل القبائل وتوحيدها تحت رايته. قدم هذا التحالف القبلي خدمات جليلة إلى الشيخ بوعمامة. بعدما دعمته تلك القبائل بشريا وماديا، وهو ما أعطى المقاومة حماسا أكبر، ونفسا أطول في مجابهة الاستعمار (1881-1908). وكانت تلك القبائل وإلى عهد قريب من انطلاق مقاومته تعيش تطاحنا وصراعا قبليين.

يهدف تفكيك هذا التحالف القبلي المنضوي تحت لواء مقاومة الشيخ بوعمامة وفي محاولة منها لإضعاف نفوذ الشيخ بوعمامة في أوساط هذه القبائل، أقدم ليوتي- Lyautey على غلق الأسواق التجارية أمام تلك القبائل فاضطر البعض منها تبعا لتأثيرات هذه السياسة إلى إرسال ممثلين عن القبيلة للتفاوض معه مطالبين برفع الحصار الاقتصادي مقابل تعهدهم بعدم الاعتداء، أو حتى الوقوف في وجه القوات الفرنسية. بينما ظلّت قبائل أخرى صامدة تقاوم تحت قيادة الشيخ بوعمامة الذي لجأ إلى معاقبة القبائل المتخلفة على تصرفها الانفرادي.<sup>(2)</sup>

هذه السياسة أي فكرة " الشراكة" في الإدارة المحلية أو الأهلية التي سلكها ليوتي خلال فترة قيادته للإقليم العسكري بالعين الصفراء جتّبت السلطات الاستعمارية

<sup>1</sup> - Yazid Ben Hounet, L'Algérie des tribus. Le fait tribal dans le Haut Sud- Ouest contemporain, Paris, L'Harmattan, 2009, collection « Connaissances des Hommes », P.226.

<sup>2</sup> - Céard, L.op.cit. P. 92.

كثيرا من الخسائر البشرية والمادية، وذلك باستمالاته لشيوخ القبائل والزوايا. فقد أطلق أيديهم في مناطق شاسعة وسمح لهم باستغلالها حسب أهوائهم شريطة ضمان الأمن داخلها. وفي المقابل مكنت فرنسا في الأخير من بسط سيطرتها على كل أجزاء الجنوب الوهراني بل في توسيع دائرة الاحتلال الفرنسي في المغرب الأقصى عبر هذه المنطقة، حيث سيعين ليوتي أول مقيم عام فرنسي بالمغرب (1912- 1925) وسوف لن يتخلى عن تلك الأساليب التي اتبعها في الجزائر في المجال الثقافي والاجتماعي.

إنَّ اهتمامات ليوتي- Lyautey بالجانب الاجتماعي لم تمنعه من التركيز على المشروع الثقافي من خلال اختراق المؤسسات الثقافية، وتندشيط حركة التنصير كمحاولة ناجعة لدمج المجتمع بمنطقة الجنوب الوهراني، وترسيخ استعمار بديل يعوض الانسحاب العسكري. ومن ثمَّ كان ليوتي- Lyautey مدركا بأن تحقيق الاستمرارية في بسط الهيمنة الفرنسية على مستعمراتها لا يمر بالضرورة عبر التواجد العسكري، ولكن قد يكون الأمر أقل كلفة وأكثر ربحا من منظور الاستعمار الثقافي.

وما دامت اللغة هي المدخل الرئيسي في أي استعمار بهذا الشكل فإنَّ الأمر كان يتطلب التفكير في الوسائل اللازمة لفرض اللغة الفرنسية والقضاء على اللغات المحلية في المستعمرات، فتمثَّلت المدرسة وسيلة ثالثة لإتمام الاستعمار بعد الاحتلال العسكري والقضائي، لأنَّ تعليم الجزائريين بصفة عامة أضحى بالمنظور الفرنسي ضرورة بالنسبة للحكم الاستعماري، لأنَّه يُعزِّزه ويُرسِّخ أفكاره. في هذا الإطار يقول الجنرال ليوتي- Lyautey: "يجب الكفاح بكل الوسائل التي نمتلكها ضدَّ انتشار اللغة العربية والإسلام..."<sup>(1)</sup> ويركز في ذلك على المناطق التي تجمع في تداولها اللغوي بين العربية والأمازيغية، وينطبق ذلك على منطقة الجنوب الوهراني التي تضم قبائل عربية وأمازيغية. وفي هذا السبيل تمَّ فتح أول مدرسة تابعة للأباء البيض بالعين الصفراء سنة 1903 تزامنا مع تعيين ليوتي- Lyautey على قيادة الإقليم سعيا منه على تنويع أساليب التغلغل السلمي في المنطقة.<sup>(2)</sup>

وهو ما يعني بصورة واضحة أنَّ ليوتي- Lyautey شأنه شأن المنظرين الكولونياليين كان يرمي من خلال المدرسة والتعليم إلى مُحاولة القضاء على الثقافة الوطنية

<sup>1</sup> - محمد علي داهش، دراسات في تاريخ المغرب العربي المعاصر، تونس، دار مركز الكتاب الأكاديمي، 2012، ص.23.  
<sup>2</sup> - محمد برشان، النشاط السياسي وبدايات العمل الثوري بمنطقة العين الصفراء (1942-1956)، الجزائر، دار المحابر، 2012، ص.49.

والدينية للمجتمع، ومن ثم تسهيل عملية دمج أفرادها في بوتقة الحضارة الغربية، بمعنى تحويل المجتمع الإسلامي الأهلي وتحويله ومع مرور الوقت حمله على تعليم اللغة الفرنسية، والاحتكام إلى القضاء الفرنسي، تبني الأعراف والتقاليد الغربية. وكُمحصلة نهائية تحويل المجتمع العربي وفق متطلبات الحضارة المسيحية إلى الاعتقاد بمبادئها الدينية والفلسفية.<sup>(1)</sup>

سياسة ليوتي- "Lyautey" الاقتصادية.

مع بداية القرن العشرين عرفت الجالية اليهودية بمنطقة الجنوب الوهراني تطورا محسوسا في بيئها العددي وتحسنا ملحوظا في مركزها الاقتصادي والاجتماعي بفعل الهجرة المرتفعة ليهود تافيلالت باتجاه المنطقة. وقد كان للامتيازات والتسهيلات التي أطلقها الجنرال ليوتي "Lyautey" لليهود بغية القضاء على تجارة القوافل وتشجيع التجارة القارة التي يتحقق من خلالها الاستقرار بالمنطقة تأثيرا واضحا في هذه الهجرة.<sup>2</sup>

وتأتي محاولة ليوتي "Lyautey" للقضاء على تجارة القوافل عبر الصحراء من الأولويات التي وضعها في مشروعه الرامي إلى تحقيق الاستقرار الأمني والاجتماعي لسكان المنطقة. فكان لجوؤه لتشجيع الجماعات اليهودية المهاجرة على إقامة المتاجر والدكاكين القارة كأسلوب فعال لتجسيد تلك الأهداف.<sup>(3)</sup> وفي الوقت ذاته شدد ليوتي "Lyautey" على منع عودة اليهود المهاجرين إلى ديارهم الأصلية من خلال إصدار تعليمات تنص على مصادرة كل الأملاك التي اكتسبوها.

بموجب هذه التسهيلات انتقل عدد كبير من يهود تافيلالت إلى بشار، القنادة،... وبتشجيع من ليوتي "Lyautey" ليصبحوا وكلاء تجاريين ليهود آخرين فضلوا البقاء في موطنهم الأصلي، أو فتحوا لهم متاجر للبيع بالتقسيط.<sup>(4)</sup> ومن ثم فقد شكل الوافدون الجدد من يهود تافيلالت همزة وصل تجارية هامة بين المغرب ممثلا في

<sup>1</sup> -Colonat (F). Les Instituteurs Algériens (1883 – 1939), Alger, Imprimerie Chiral, 1975, P. 80. Voir aussi: -Turin (Yvonne), Affrontement Culturels Dans L'Algérie Colonial, Ecoles, Médecines, Religion (1830 – 1880), Maspéro, Paris, 1971, P.73.

<sup>2</sup> - Céard, L.op.cit, P. 81.

<sup>3</sup> - De Clermont, Gallerand, « Le Mouvement Commercial Des Confins Oranais » Renseignement Coloniaux, juin 1905,PP.227.228

<sup>4</sup> - Ibid. .P.543.

إقليم تافيلالت والمستعمرة الفرنسية بمنطقة بشار. فخلال الإحصاء الذي أجري سنة 1948 والذي تزامن مع هجرة اليهود إلى فلسطين وصل عددهم ببشار إلى 4500 يهودي.<sup>(1)</sup>

وليدفع ليوتي- Lyautey بسياسته إلى أبعد حدودها، شجع إقامة الأسواق التجارية الأسبوعية بالجنوب الوهراني، ك مجال حيوي واسع للمبادلات التجارية، ذلك أنّ إقامة مثل هذه الأسواق من منظور الجنرال ليوتي- Lyautey عُدّ من أبرز السبل لاستمالة القبائل التي رفضت الخضوع والاستسلام، بعد أن اختارت مقاومة الحركة التوسعية للاستعمار الفرنسي بالمنطقة. كما شكّلت هذه الأسواق ملتقى تتجمع فيه أفراد القبائل الوافدة من كل الجهات.<sup>(2)</sup>

كان بناء سوق تجاري أسبوعي بمركز بني ونيف على بعد 110 كلم من مدينة بشار أول مشروع اندرج في هذه السياسة التجارية لتجسيد سياسة ليوتي- Lyautey، بعد أن دعمه بكل الوسائل المادية والأمنية، قصد جعله يرقى إلى أن يكون أهم سوق تجاري في منطقة الجنوب الوهراني، خصوصا وأنه يقع على نقطة حدودية مع المغرب الأقصى، كما أنّ وصول السكك الحديدية إلى بني ونيف في مارس 1903 زاد من هذه الأهمية، وساعد في توسيع التجارة الفرنسية إلى المناطق الجنوبية التي ظلت إلى عهد قريب من الاحتلال مجالا رحبا لنشاط القوافل التجارية.

أصبح هذا السوق من أهم الأسواق في المنطقة خصوصا بعد أن وصلت إليه السكك الحديدية، وأضحى السوق بهذه الأهمية ملتقى تقصده القبائل البدوية والحضرية كقبائل ذوي المنيع، وأولاد جرير، وقبائل القصور لبيع ما فاض عليها من إنتاج حيواني وزراعي، واقتناء ما يلزمها من المواد القادمة من الشمال الجزائري: كالشاي، القهوة، السكر، ومواد النسيج وغيرها...<sup>(3)</sup>

وعلى الرغم من أنّ هذه الأسواق لعبت دورا حيويا في تنشيط ديناميكية الاقتصاد من جهة، وساهمت في تدعيم العلاقات الاجتماعية بين قبائل المنطقة خاصة المتناحرة من جهة ثانية، إلا أنّ أهداف ليوتي- Lyautey من تأسيسها كانت أبعد من هذا بكثير، فإستراتيجيته المتمثلة في إقامة الأسواق عُدّت من أنجع الطرق والوسائل

<sup>1</sup> - Ceard, Op.Cit.P.81.

<sup>2</sup> - روس ا.دان. المرجع السابق، ص.263.

<sup>3</sup> - De Clermont. Gallerand, Op.cit. P.227.

السلمية لاختراق المجتمع القبلي بالمنطقة وإخضاعه للمنظومة الاستعمارية الجديدة، حيث استخدمها لأجل عملية المراقبة التي مارستها إدارة الاحتلال على قبائل المنطقة، كما اعتبرت هذه الأسواق مورداً مالياً للاحتلال من خلال إجبار هذه القبائل على دفع ما وجب عليهم من زكاة وعشور وفروض وغرامات.

وإلى جانب هذا الهدف الجبائي، فإنّ ليوتي- Lyautey جعل الأسواق وسيلة لتمرير مبادرات فرنسا ومقاصدها السياسية بين القبائل، وترصد أخبارها وتنقلاتها، وبالتالي فرض السلطة الفرنسية بالمنطقة، وإخضاع سكانها، وإذلالهم واستنزاف الخيرات مادية كانت أم بشرية، ومحاربة المقاومة الوطنية عن طريق هذه القوانين والإجراءات، وقد لقي ليوتي Lyautey كل الدعم والتأييد في إستراتيجيته هذه من مختلف أعضاء الحزب الاستعماري الفرنسي.<sup>(1)</sup>

#### خاتمة

نخلص من هذا كلّهُ أنّ ليوتي- Lyautey وإن اعتمد في رسم معالم سياسته إزاء تردي الوضع الأمني بمنطقة الجنوب الوهراني على مبدئي العقلانية والبراغماتية، مُتبعاً أسلوباً أكثر تحضراً، وإنسانية، وهو المنهج الذي يختلف تماماً عن الأسلوب الفرنسي في إدارة المستعمرات. حاول من خلال ذلك استمالة واستقطاب السكان إلى المؤسسات الاستعمارية، والذين طالما رفضوا الاتصال والتقرب منها. فإن كانت هذه السياسة تحمل بعداً إنسانياً في شعاراتها وطرقها إلا أنّها اخفت في طياتها الفكرة الإدماجية. وكانت تمثل أسلوباً استعماريّاً صرفاً يدخل ضمن أهداف الحركة الاستعمارية.

يهدف تسهيل عملية التغلغل الاستعماري بالمنطقة وبأقلّ التكاليف المادية والبشرية لسلطة الاحتلال حاول باسم الحداثة تفكيك المنظومة الاجتماعية التقليدية التي بنيت على مؤسستي القبيلة والزاوية، وتحطيم سلطة شيوخها من خلال تحوير أدوارهم ووظائفهم، وجعلها تصبّ في خدمة الاستعمار وسياسته الهادفة إلى ضبط تحركات السكان ومراقبتهم، واستخلاص الضرائب منهم والاستعلام عن أحوالهم. ومن ثمّ فإنّ السياسة التي تبناها ليوتي- Lyautey في الجنوب الوهراني لم تؤدّ إلى تحطيم سلطة القبيلة ككيان بقدر ما أدّت إلى تعطيل فرض وصايتها على المجتمع،

<sup>1</sup> - روس دان، المرجع السابق، ص. 263.

ومن ثمّ فقدت معها العائلات الكبرى التي كانت تُمثل الرمز الروحي والمادي للمجتمع  
مراكزها الاجتماعية والدينية.